سؤال الهوية
في خطاب المرويات الشفاهية

بقلم
أ/ أحمد زغب
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بمعهد الآداب واللغات
المركز الجامعي بالوادي

الملخص :

محاولة لتوليد الدلالة العميقة للخطاب الشعري الشفاهي انطلاقا من نص شفاهي من الشعر البدوي، حيث تبدو المفارقة واضحة بين الذات (الشاعر والمجتمع الذي يمثله) ما يمثل الثقافي، والموضوع الذي يمثل الطبيعي . لم يعد المسار الصوري يهدف إلى الاتصال بالموضوع على محور الإرادة لكنه بالإضافة إلى ذلك يعبر عن التماهي الكامل بين الطبيعي والثقافي الأمر الذي يؤنسن الطبيعي ويثقفه

Résumé

Essai du génératif de la signification profonde du discours poétique orale à partir d'un texte du poème orale nomade , où le paradoxe se voit claire entre le soi (poète , société represenée) qui représente le culturel ,et le sujet qui représente le naturel.

Le parcours des images ne vise plus à la conjonction du soi au sujet sur l'axe de la volonté , mais ce parcours représente l'identification totale réciproque entre le culturel et le naturel ce qui humanise et culturise la nature .

تمهيد :

إن مسألة الهوية مسألة اجتماعية في المقام الأول، فالإنسان منتم بطبعه إلى مجتمعه، لذلك فإن هذه المسألة تثار فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي فيشعر بالهوية مع أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه، وهو ما يسميه جورج ميد اندماج الذات في الغير [1] وهذا ما يعبر عنه بالانتماء، ويعني انتماء الفرد إلى مجتمع معين، له سمات خاصة تميزه عن

غيره من المجتمعات في عاداته وتقاليده وثقافته وغير ذلك من معالم الخلاف الكثيرة بين المجتمعات .

فمتى ولماذا وكيف تثار مسألة الهوية ؟ مادام الإنسان كائنا اجتماعيا، ينتمي إلى مجتمعه ويمد جذوره فيه وهو جزء من هذا الكل فلا يخطر بباله أن يتساءل من أنا ومن نحن مادامت الحياة تسير مسيرتها المعتادة وتكرر دورتها المألوفة، وقد تمضي أجيال دون أن تتساءل عن الهوية [2] .

يقول الدكتور النبهان إن الانشغال بالهوية يكاد يصاحب كل صحوة قومية أو صدمة أو تصدع عميق يؤدي إلى الخوف من التلاشي والاندثار مثلما حدث ذلك لمجتمعنا العربي في مواقف تاريخية متفاوتة، ومثلما يحدث اليوم في عصر العولمة [3] .

غير أن السؤال . في ظروف الأزمات الكبرى التي تتعرض لها المجتمعات . هل يكفي للتعبير عن الهوية، هل يكفي لمواكبة التطور الاجتماعي وتلبية الحاجات الثقافية المتزايدة في ظل صدام عنيف مع ثقافة الآخر؟

وهل الخطاب الأدبي الرسمي المؤسساتي أقدر على مواكبة هذا التطور ومقاومة ذلك الصدام، هل الثقافة الكتابية المؤسساتية تطرح مسألة الهوية بشكل أعمق من الثقافة الشعبية ؟

سمات الخطاب الشفاهي مقابل الكتابي :

للإجابة عن هذه الإشكالية لابد لنا أن نوضح من البداية بعض السمات العامة للخطاب الشفاهي الذي تعتمده الثقافة الشعبية عموما في مقابل الخطاب الكتابي الرسمي .

يرى كثير من الباحثين في مسألة الشفاهية والكتابية [4] أن الخطاب الشفاهي شديد الاتصال بسياقه الاجتماعي مندمج في الجماعة منسلخ عن ذاتية الفرد، لذا فهو أكثر حيوية وارتباطا بالواقع، بينما الخطاب الكتابي مستقل عن سياقه يعمق مركزية الذات ويميل إلى تجريد الوقائع من سياقها الإنساني والاجتماعي .

ومن ثم يوضع الخطاب الشفاهي في تشاكل مع الجماعي الشعبي بينما يوضع الكتابي في تشاكل مع الفردي الذاتي .

ويرى هؤلاء الدارسون أن المعرفة المكتوبة منفصلة عن ذات الكاتب الذي يكون مجردا منها حياديا إزاءها، أما في التقاليد الشفاهية ، فإن العارف يمتلك المعرفة ويتخذ منها موقفا حميما من ناحية، ويواجه بها غيره من ناحية أخرى [5] وسواء أكانت هذه المواجهة سلبية كالهجاء والتحدي، أم إيجابية كالمديح وإظهار البراعة في الأداء، فإن لهجة المخاصمة تسبغها دائما بلونها الحيوي الفاتح. فلا يمكن تصور مشافهة دون حضور الباث والمتلقي، ولا يمكن تصور مشافهة يحضرها طرفان على الأقل دون انتظار ردود فعل كليهما من الآخر .

وعلى هذا نتصور الخطاب الشفاهي معبرا عن الضمير الجمعي، يدافع عن كيان الجماعة ولا يرى لنفسه وجودا إلا في كنف الجماعة ينطق بلسان حالها ويدافع عن مواقفها دفاعا مستميتا دون النظرة الموضوعية إلى تلك المواقف .كما يصرح بذلك شاعر شفاهي قديم :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[6]

وعند تلقي الصدمات الكبرى التي تقوض المؤسسات الرسمية، من قبل الموجة العاتية لثقافة الآخر، التي تفرض سلطانها ومؤسساتها الرسمية البديلة، لا تبقى في هذه الحالة إلا أشكال التعبير الشعبية الشفاهية، تمثل الإمكانية الوحيدة التي تستخدمها المجتمعات المجتمع الجزائري مثلا إبان فترة الاحتلال) للتعبير عن واقعه المباشر بصفة عامة، وعن تطور الوعي الجمعي (الوطني مثلا).

إن الخطاب الشفاهي في ظروف من هذا النوع « قدر له أن يكون الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها الجماعة الشعبية من اجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك، وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور عن طريق نظام من التجسيدات ذات الطابع الرمزي المستمدة من التراث الجماعي والمعبرة في نفس الوقت عن الواقع النفسي والاجتماعي » [7]

الهوية في الخطاب الشفاهي السردي :

تعبر المسرودات الشفاهية التي تتمثل في الحكايات الشعبية والخرافات والمغازي عن الانتماء إلى قيم الجماعة، وتدافع عنها دفاعا مستميتا إزاء الغازي الأجنبي مجسدة تلك الثنائيات الضدية بين الكفر والإيمان والخير والشر والظلم والعدل و والباطل والحق .... والجنة والنار، فالقيم الإيجابية تعبر عن الهوية والسلبية تعبر عن الآخر أو الغازي الكافر .

وإذا كانت معظم الحكايات والخرافات تمثل رؤية إنسانية عامة وتعبر عن حالات نفسية واجتماعية وثقافية تشترك فيها جميع الشعوب بصورة من الصور، رغم اختلاف البيئات الاجتماعية وتباعد المجتمعات في الزمان والمكان، فالواقع الذي تعبر عنه الحكاية. غالبا .تنعدم فيه النظرة الإقليمية والقومية [8] فإن المغازي والسير كبطولات السيد علي ونحوها تبرز أهم مظاهر وحدة الجماعة الإسلامية إزاء الغازي الأجنبي، فالمغازي تتحدث عن مواجهة تقع بين مسلمين وكفار، وهنا لا تكتفي بالتعبير والإشادة بالعناصر الأساسية للهوية العربية والإسلامية كالإيمان والصدق والممارسات الشعائرية كالصلاة والصوم الخ . والإشادة بالصحابة ومرجعيتهم ومثلهم الأعلى الرسول ﷺ بل أكثر من ذلك تتحدث عن الآخر باعتباره الكافر الذي يسقط عليه كثيرا من المظاهر السلبية التي يشبه المستعمر . والمستمع كما يقول الدكتور بورايو « وهو يستمع إلى هذه المغازي يحدث عملية زحزحة للأحداث التاريخية فتصبح كأنها تصور بنفسها واقعه وهو في هذه الحالة يصبح هو امتداد لجيش المسلمين الأوائل، ويصبح المستعمر صورة مكررة لجيش الكفار، ويعمل الرواة على تأكيد هذا التماثل، فيطلقون على الكفار في قصصهم نفس الأسماء التي تنتشر بين الجزائريين، والتي يطلقونها على الجالية الاستعمارية في الجزائر مثل الرومة والنصارى والكفار .. كما يجعلون شخوصهم من هؤلاء النصارى يتحدثون اللغة الفرنسية (ومن بينهم كفار قريش) فينطقون على ألسنتهم عبارات فرنسية مستعملة في الحياة اليومية، والرواة في وصفهم للمظهر الخارجي لهؤلاء الشخوص يلبسونهم نفس اللباس الذي يستعمله المعمرون الأوروبيون المنتشرون في الريف الجزائري مثل البرنيطة سروال بوطويل الفيستة .. ويظل هذا

الإسقاط ضمنيا يختفي وراء العنصر التاريخي في الشكل المنظوم للغزوة، لكنه كثيرا ما يبين عن نفسه في أثناء أدائه نثرا من طرف الراوي الذي يكشف عن صلة ما يحكية بالواقع الذي يعيشه جمهوره »[9]

وهكذا لعبت المغازي وحكايات البطولة دورا هاما في تغذية الشعور القومي وإسناد معالم الهوية العربية الإسلامية للجماعة هذه المعالم التي كانت تأخذ في الاهتزاز بفعل الواقع الاستعماري للبلاد، وركزت هذه المغازي على مظاهر وحدة الجماعة الإسلامية إزاء الغازي وأسقطت الخلافات والعصبيات القبلية التي وسمت المغازي المدونة الموروثة عن القرون السابقة [10]

الهوية في الخطابات الشعرية الشفاهية :

لا يكتفي الشاعر الشفاهي بالعرض الباهت للقضايا، وعلى يقف على مسافة من قضايا مجتمعه، إنما يندمج فيها اندماجا كليا، ويتخذ منها مواقف صريحة، خلافا لموقف القاص الشعبي الذي يميل إلى الرمزية عن طريق الأسطورة والكرامة وغيرها من الخوارق البعيدة عن الواقع ..

فالشاعر يتناول ما يلح عليه إلحاحا مباشرا من واقع مجتمعه وبيئته المحلية والمشاكل المحيطة به في حدود تصوره وإدراكه لأسبابها، كما يعبر عمّا يريد أن يكون عليه هذا الواقع .

فحين يطرح الشاعر الشفاهي الهوية يبدؤها في حدود قبيلته، وربما محيطه الجهوي ثم يمضي تدريجيا إلى بطولات قومه في إطار الفخر فيصل إلى التاريخ المشترك الذي يجمعه بقبائل أخرى، حتى يكاد يصل إلى التعبير إلى الانتماء القومي وإن بصورة غامضة .كل ذلك في إطار عرض المفاخر والمآثر .

يبدأ هذا الشاعر[11] مثلا، بالمآثر التقليدية من شجاعة ومروءة وكرم ، ويشيد بالتآلف بين أفراد القبيلة، وغوثها المحتاجين وتبسطها في الكرم :

نَّجْـــــــــعِ الْحِجَّـــــــــاجْ رَحَـــلْ شَـــرَّقْ قَاصِـــدْ لِمْـــرَاجْ
عَـــــنْ بَعْـــــضَهْ اعْـــــزَازْ عَـــاتِي وْمَـــا يَقْـــبَلْشِ الـــذُّلْ

يجِيـــــــهْ الْمِحْتَـــــــاجْ يْجِـي فَـارَغْ يـدِّي بْلِحْمِـلْ[12]

فالشاعر بلسان حال القبيلة،لا يتجاوزها، يشيد بخصالها، وحين يعبر عن الانتماء إلى القبيلة والقبيلة الكبرى (لرباع) والمنطقة التي سكنها منذ ستة قرون . كما يقول . وتاريخه في هذه المنطقة يربط بالقبائل العربية المسماة في التاريخ بقبائل بني هلال .ومع ذلك يعبر عن حسرته على ماضيه المجيد بلسان القبائل العربية وماضي أمثاله من أهل المنطقة :

شُوفْ الدِّنْيَا تْدُورْ وَاللّهْ يَا رَاجُلْ وْمَـادَا مِنْهَـا نَـاسْ وَاللّهْ مَـا بَـالِي

نَا سُوفِي مِنْ الْوَادْ غَنَّايْ وْشَاعِرْ حِجَّـاجِي مِـنْ لَرْبَـاعْ أَعْمَـامِي وَأَخْـــــــــــــــــــــــــوَالِي

اسْهَلْنِي عَ التَّارِيخْ نَا عِنْدِي مْنَزَّلْ وْعِنْـدِي سِتْ قْـرُونْ هَـذَا مِنْزَالِـي

وْكِـي نِتْفَكَّـرْ حَـالْتِي وَاللّهْ نَهْبَـلْ وْمَادَا مِنْهَا رْجَالْ رَاهِي كِي حَالِي

أَنْتَ بَدْوِي رَحَّالْ مَاكِشْ مِ لُمْدُنْ وَاسْهَلْ عَ التَّارِيخْ تَلْقَاهْ هْلاَلِي[13]

ويلاحظ أن الشاعر عبر عن انتماء إقليمي ومحلي، ومع أن الإقليمية كما يقول الدكتور التلي بن الشيخ ليست نقيضا للقومية ولا بديلا عنها وإنما هي جزء من الروح القومية متمم لها، ذلك أن هذه الرؤية الإقليمية ليست عن وعي ومناهضة للروح القومية والإنسانية إنما هي ناتجة عن أن الشاعر أسير واقع إقليمي لا يفرق بين الإقليمية والقومية كما يراها الدارسون والشعراء المدرسيون.[14]

لهذا نلاحظ في الشواهد السابقة عدم ذكر الانتماء العربي والإسلامي والوطني لأن السياق الاجتماعي لا يطلب منه ذلك فليس هناك أغيار لهذا الانتماء أما حين يتعلق الأمر بالموقف إزاء الآخر فالأمر مختلف .

فحين اصطدم المجتمع الجزائري بمحاولات الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الثقافية للجزائريين، قامت النخبة من قادة الحركة الإصلاحية،

وناضلت نضالا مستميتا من أجل الدفاع عن عناصر الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائرية، استجاب لها المواطن البسيط والشاعر الشفاهي على الخصوص، واستوعب أفكارها بصورة ناصعة ، ووجدنا كثيرا من فحول الشعر الشفاهي، في مناطق مختلفة من الوطن يدافعون عن اللغة العربية والدين الصحيح ويرددون شعارات الجمعية الإصلاحية ، ومن ثم يبدأ التمايز الثقافي بين الشعب الجزائري المسلم من جهة والآخر المستعمر من جهة أخرى.

والمعروف أن الحركة كانت تداري على أهدافها السياسية، وتركز على التعليم من أجل تصحيح الدين وعصرنته وتطهيره من الخرافات والبدع التي علقت به إبان القرون الحالكة، ويعمق الشعور الأجيال بالانتماء العربي الإسلامي نجد أحد الشعراء الشفاهيين المتأثرين بالحركة الإصلاحية [15] يردد مسعى الحركة الإصلاحية بل ويلمح إلى الهدف السياسي البعيد المدى:

شَعْبِ الْجَزَائِرْ يتْعَافَى مْنِ الْخُرَافَةْ وُالتَّفْرِيقْ اللِّي فَ اَطْرَافَهْ

تَحْيَا الْجَمْعِيَّةْ الْوَطْنِيَّةْ وَالْخَيْرِيَّةْ النَّاسْ اللِّي يْحِبُّو الْحُرِّيَّة

تَحْيَا اللُّغَة الْعَرَبِيَّة بِالثَّقَافَةْ وْيتْجَدَّدْ عَهْدْ الْخِلاَفَةْ

كما تبدو معالم الهوية الوطنية الجزائرية لدى الشاعر الشفاهي، حين دعا الشاعر نفسه إلى مساندة الحركة وجمع الأموال من أجل فتح المدارس وتعليم الناشئة، والعمل على رقيّها، وكل ذلك نتيجة للصدام مع الآخر، الذي كان يضيق الخناق على نشاط الحركة، ويسن القوانين لمنع تدريس اللغة العربية:

نُشْكُرْ فِعْلِ الْعَصْرِيُّونْ الرَّجَّالَه أَصْحَابْ الْفُنُونْ

هُمَّا الرَّجَّالَةْ لْمَا يْحِبُّو حَتَّى شُغْلاَلَة

كُلّ وَاحِدْ يَدْفَعْ مِنْ مَالَهْ هَذَا شَيْ مْحَتَّمْ عَرْبُونْ

بَـــاشْ الْمُـــومِنْ يَـــسْعَدْ حَالَـــهْ يَرْقَـــى مَـــا يَبْقَـــاشِ دُونْ

هَـــــــــذِي الْحَقِيقَـــــــــةْ سُـــنَّتْنَا هِـــيَ الطَّرِيقَـــةْ

سِـــي عَبْـــدِ الْعَزِيـــزْ الثِّيقَـــة قَـــالْ نَحْيَـــوْ بِـــالْعُلُومْ

عَـــنْ وَطْنِـــي تْمَـــزَّقْ تِمْزِيقَـــهْ حَيْثُ كَانْ الدِّينْ نْكُونْ[16]

كما تأثر الشعر الشفاهي في منطقة القبائل بالحركة الإصلاحية رغم اختلاف أداة التعبير، فهذا الشاعر قاسي أو ضيف الله يتبنى أفكار الحركة الإصلاحية ويكيفها مع الوضع الخاص لمجتمعه، وذلك في أهم جانب من جوانبها وهو عصرنة الدين ورفع التحديات التي كان يتعرض لها الدين التقليدي المتصف بالجمود، فالشاعر يعبر بحماس شديد وإحساس بالنصر، فظهور الحركة الإصلاحية كان إضاءة جديدة على الوحي المنزل على محمد ﷺ .

- طلع البدر
- يضيء الجزائر
- من الشرق مرة أخرى
- أخذ الدين مكانته من جديد
- أعلنوا الخبر
- الحياة تعود إلى الدين.[17]

كما يشيد الشاعر نفسه بأهم مساعي الحركة الإصلاحية وهو التعليم ومحاربة الخرافات والبدع هذه المساعي تهدف إلى التمسك بالدين والاعتزاز بالانتماء إلى الجماعة الإسلامية، وذلك بعودة العزه والقوة إلى الدين هذه الصفا ت كما يقول الشاعر تقيم بين المحبرة والريشة [18] في إشارة واضحة إلى التعليم .

وعلى الجملة فإن أسئلة الهوية في المرويات الشفاهية السردية تتجلى في التعبير عن الانتماء إلى قيم الجماعة، والدفاع عنها إزاء الغازي الأجنبي مجسدة تلك الثنائيات الضدية بين الكفر والإيمان والخير والشر والظلم والعدل و والباطل والحق والجنة والنار، فالقيم الإيجابية تعبر عن الهوية،

والسلبية تعبر عن الآخر أو الغازي الكافر . أما في المرويات الشعرية الشفاهية فتتميز بالمباشرة في الطرح لكن النزعة القبلية والإقليمية تغلب عليها، غير أنها عند حدوث الصدام مع الآخر تأثرت بشعارات النخبة العالمة من أقطاب الحركة الإصلاحية، ورفعت شعاراتها وأهمها التعليم لرفع المستوى الحضاري للأمة وتحسيس الأجيال الناشئة بشعور الانتماء إلى التاريخ الثقافي العريق للأمة العربية الإسلامية .

. الهوامش:

---

1 ـ عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1984، 2/569

2 ـ عبد الإله أحمد نبهان ، « الهوية القومية » ، الموقف الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد 364 آب 2001

3 المرجع نفسه .

4 ـ ينظر : والتر أونج ، الشفاهية والكتابية ،ترجمة : حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، فيفري 1994.

وينظر : J. Goody La Raison Graphique Domestication de la pensée sauvage ed Minuit Paris 1979.

5ـ و. أونج ، الشفاهية والكتابة ، المرجع السابق ص 107 وما يليها

6 ـ البيت للشاعر دريد بن الصمة (ديوان الحماسة ج1/ص337).

7 ـ بورايو عبد الحميد، البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1998 ، ص 20 .21 .

8 ـ ينظر : التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990، ص15.

9ـ عبد الحميد بورايو ، المرجع السابق ص69.70.

10 ـ المرجع نفسه ص72.73

11ـ الصغير قدور بن علي بن جموعة من قبيلة أولاد حجاج بطن من الربائع عاش في البوادي الشمالية لمنطقة سوف في النصف الأول من القرن العشرين وهو هنا يشيد بقبيلته من أولاد حجاج.

12ـ رحلت قبيلة أولاد الحجاج إلى الأراضي الخصبة، إنهم قوم يحب بعضهم بعضا وهم شجعان لا يقبلون الذل يأتيهم ذوو الحاجات لا يملكون شيئا فينهبون من عندهم محملين بالخير .

13ـ يقول الشاعر أن الدنيا تتغير من حال إلى حال وأناس كثيرون لا يبالون بتقلباتها، فأنا سوفي من الوادي شاعر من قبيلة أولاد حجاج وهو بطن من بطون قبائل الربائع ، وتاريخي في هذه المنطقة مرتبط بالقبائل العربية الهلالية وأسكن هذه البلاد منذ ستة قرون ومع ذلك فحين أتذكر الحال آل إليها الوجود العربي في هذه البلاد ،أكاد أجن ولست وحدي على هذه الحال فكثير أمثالي .

14ـ التلي بن الشيخ ، المرجع السابق ص 12.

15ـ يدعى الهادي جاب الله عاش فيما بين 1880ـ 1978 تاجر تمور بين وادي سوف ووادي ريغ .

16ـ العصريون : الذين يدعون إلى عصرنة الدين ونبذ ممارسات قرون التخلف، وهم الرجال الحقيقيون الذي يدفعون الأموال عربونا حتميا من أجل إسعاد ورقي المسلمين ، وهذه الحقيقة فليست هنا طرق صوفية الطريقة هي إتباع السنة أما سي عبد العزيز فهو نجل الشيخ الهاشمي الشريف مؤسس الزاوية القادرية الذي ترك طريقة أبيه وتبنى أفكار الجمعية و الذي دعاهم إلى جمع الأموال من أجل إحياء الأمة بالعلم

17ـ ترجمنا هذه الأبيات عن الفرنسية عن تسعديت ياسين وهي بدورها ترجمتها عن النص الأصلي ، ينظر : Tassaadit Yacine Poésie Bérbére et identité Qasi Udifella Bouchene Awal pp 98.99

18ـ ينظر : Ibid p:102